المحاضرة الثانية: المذاهب الأخلاقية الكبرى

انقسم فلاسفة الأخلاق منذ القديم في تفسيرهم ودراستهم للأخلاق، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، وسنعرض فيما يلي مجموعة من هذه المذاهب الأخلاقية:

أولا: مذهب السعادة (أخلاق السعادة عند أرسطو)

يرى أرسطو في "الكتاب العاشر" من كتابه: "الأخلاق إلى نيقوماخوس": " لما كان الخير هو غاية كل شيء وكل فعل، كانت الأخلاق كما حال كل مبحث، فحصاً على خير ما، هو الخير الخاص بالإنسان من حيث هو إنسان". فما هذا الخير؟ يجيب أرسطو: " في البحث عن طبيعة هذا الخير ينبغي أن نميز بين الأفعال ونتائج الأفعال، وكلاهما من الغايات التي تسعى الكائنات العاقلة إلى تحصيلها. إلا أن الضرب الثاني من الغايات هو الأفضل، لأن الفعل من النتيجة هو بمنزلة الوسيلة من الغاية".

وقد ميز بين الغايات والوسائل، وبالطبع فإن الغاية أفضل من الوسيلة، والغاية تكون أفضل إذا ما كانت غاية في ذاتها، وألا تتحول يومًا إلى وسيلة لغاية أبعد. فإذا سألت مريضًا مثلًا: لماذا تجمع المال؟ لقال لك إن غايته هي العلاج من المرض الذي ألم به، وإذا ما سألته: وما غايتك من العلاج؟ لكانت الإجابة هي: الصحة، وإذا ما سألناه: وما الغاية من الصحة؟ لكانت الإجابة ممارسة الحياة ممارسة تحقق اللذة والمتعة، وإذا ما تساءلنا مرة أخرى: وما الغاية من هذه اللذة وممارستها؟ لكانت غاية الغايات التي لا يمكن عدها وسيلة لغاية أبعد هي: السعادة!

ولهذا يعتبر أرسطو أن السعادة هي الغاية القصوى لوجود الكائن البشري باعتبارها الخير الأسمى، لا سيما بالنسبة إلى أولئك الذين لا يفصلون بين الفضيلة والسعادة، بحيث أن "الفاضل عندهم هو السعيد". لكن هذا التأكيد لا يمنع هؤلاء أي أصحاب هذا القول من أن يختلفوا في ماهية السعادة، فثمة من العامة من يرون أن السعادة هي اللذة والثروة والجاه، بينما يرى الخاصة وعلى رأسهم أفلاطون وأصحابه أن الأشياء جميعاً ليست خيراً في ذاتها بل هي تستمد ماهيتها الخيّرة من مبدأ أسمى للخير قائم في ذاته وهو مبدأ أساس لكل خير آخر. ومن الواضح هنا أن أرسطو يتمايز هنا تماماً عن

أستاذه أفلاطون في تحديد للخير أهو في السماء أم في هذه الحياة الدنيا. ولعل هذا التمايز يظهر بأفضل ما يمكن في لوحة رافائيل "مدرسة أثينا" حيث نرى الفيلسوفين يتوسطان مركز اللوحة يسيران معاً لكن أفلاطون يشير بيده نحو السماء، فيما يشير أرسطو بيده نحو الأرض.

ثانيا: مذهب اللذة (أخلاق اللذة)

يعتبر الفيلسوف اليوناني أبيقور من أشهر من دعا إلى مذهب اللذة بوصفها نظرية أخلاقية الذي يتفق مع أرسطو في أن الخير يحظى بقيمة في ذاته ولا يستمد قيمته من شيء آخر. وأن السعادة الخير الأسمى. لكن موضع الاختلاف هو أن أبيقور يماهي السعادة مع المتعة أو اللذة. وحجته في ذلك أن المتعة الشيء الوحيد الذي ينشده البشر وله قيمة في ذاته. والمتعة الأخلاقية تقوم على المتعة النفسية، فكل شيء نفعله تكون غايته حصول ذواتنا على المتعة.

والمتعة صلة وثيقة بإشباع رغبات المرء، ويميز أبيقور بين نوعين من المتعة: النوع الأول هو (المتعة المتحركة) وتحدث في أثناء القيام بإشباع الرغبة، كأن نتناول الطعام الذي نفضله عندما نجوع، وتتضمن هذه الرغبات إثارة للحواس، وهذه المشاعر ما يسميها البشر بـ (المتعة)، أما الحالة التي يصبح فيها المرء بعد إشباعه لرغباته فلا يعود في حاجة إلى شيء ما، فيسميها أبيقور بـ (المتعة الثابتة)، والمتع الثابتة أفضل أنواع المتع، وينكر أبيقور وجود أي حالة وسطية بين الألم والمتعة، لأنه عندما لا يشبع المرء رغباته فإنه يكون في حالة ألم، وعندما يشبع رغباته كافة فإنه يصل إلى أقصى درجات المتعة.

لكن يرى أبيقور أنه إذا كانت المتعة الخير الأعظم، فإن الألم الشر الأعظم، وأنه من الأفضل تفادي المتعة إذا كانت تقود إلى معاناة طويلة المدى، وأنه من النافع دائما تحمل الألم إذا كان سيؤدي في النهاية إلى متعة طويلة المدى. ولا يعني هذا أن فلسفته تدعو إلى حياة شهوانية، فليس الإسراف في السكر والطعام والاحتفال وإشباع الغرائز الجنسية ما يولد الحياة الممتعة. بل إن الحياة الممتعة تكون عبر الشرف والحكمة والعدل والرصانة، فنظام غذائي نباتي بسيط وصحبة قليلة من الأصدقاء في حديقة متواضعة كاف لتحقيق السعادة حسب أبيقور.

وليست كل رغبة جديرة بالإشباع، إذ يحدد أبيقور أنواع الرغبات بثلاثة أنواع هي:

ـ رغبات طبيعية وضرورية: ومن أمثلتها الرغبة في الطعام والمأوى وما في حكمها، وهي رغبات سهلة الإشباع، ويمكن استيفاؤها بقدر كمي محدد، وهي من صلب طبيعة الإنسان. ويتسبب إشباعها بالمتعة العظيمة، وهي ضرورية للحياة. ويمكن للناس بعد إشباعها الانتقال لإشباع أنواع الرغبات الثانية.

ـ رغبات جوفاء وعنجهية: ومن أمثلتها الرغبة في القوة والثروة والشهرة، وهي رغبات صعبة الإشباع لعدم وجود حد طبيعي كمي كاف لها، فإذا رغب المرء في الثراء مثلا، فإنه مهما بلغ من الثراء فيمكنه دائما أن يصير أكثر ثراء، وهي رغبات عير طبيعية بالنسبة للبشر، بل يفرضها المجتمع بسبب وجود اعتقادات باطلة تفيد أن امتلاك القوة مثلا سيحصن المرء نفسه من خطر الآخرين، ويرى أبيقور أن هذه الرغبات يجب أن تستبعد ولا تشبع.

ـ رغبات طبيعية غير ضرورية: ومن أمثلتها الرغبة في الطعام الفاخر، والرغبات الجنسية، فعدم إشباع هذه الرغبات لن يصحبه ألم. وهو يرى لا مشكلة في إشباع الرغبات الطبيعية غير الضرورية إذا لم تتسبب بأذى وما دام يحترم المرء القوانين والأعراف. لكنها في نهاية المطاف لا تعد رغبات خيرة.

ثالثا: مذهب المنفعة

لقد ازدهرت النزعة التجريبية في تفكير الإنجليز منذ فرنسيس بيكون في مطلع القرن السابع عشر، وبلغت الذروة عند دافيد هيوم في القرن الثامن عشر، ثم نهضت التجريبية أيضًا في القرن التاسع عشر على يد جيرمي بنتام وجون ستيورات مل وغيرهما، إذ تجلت النزعة التجريبية " أوضح ما تكون في المجال الأخلاقي الذي كان يعبر عنه مذهب المنفعة العامة."

و معالم المذهب النفعي تتلخص في التقاء مفكريه على القول بأن اللذة أو المنفعة هي الخير المرغوب فيه، والألم هو الشر الذي يجب تفاديه، ومن ثم فإن المنفعة عندهم هي مقياس الخيرية. ولكن هناك من أصحاب هذا الاتجاه من ابتغى السعي وراء اللذة أو المنفعة الفردية أمثال الأبيقوريين قديمًا وتوماس هوبز حديثًا فهم أصحاب مذهب اللذة الفردي أو الأناني، ومنهم من التمس المنفعة العامة – وهم المحدثون – حيث طالبوا بتحقيق " أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس".

يرى جيرمي بنتام أن الناس بطبائعهم يسعون وراء اللذة ويجتنبون الألم كالحيوانات تمامًا، مع امتيازهم عن الحيوان باتباعهم لمبدأ النفعية لاستخدامهم للعقل، لأن العقل هو الذي يحكم على الفعل الخير، إذ يعود بلذة مستمرة تفوق فيه اللذة على الألم، وبالعكس فإن الفعل الشرير يؤدي إلى زيادة الألم على اللذة مع استمراره. وأهم العوامل في حساب اللذات التي حددها بنتام هو ما يسميه بعامل الامتداد، أي عدد الأفراد الذين يمكن أن يشملهم الشعور بها في وقت واحد، لأن ما يعنيه هو أن تشمل اللذة أكبر عدد ممكن من الأفراد، فالبحث عن لذة الآخرين عند بنتام هو أحسن وسيلة لإعانة الفرد على تحقيق أكبر قسط من اللذة، فالمنفعة الشخصية مرتبطة بالمنفعة العامة، لأن المرء عاجز عن الوصول إلى ما هو نافع له من غير الاجتماع بغيره والتضامن مع أفراد المجتمع.

رابعا: المذهب المثالي (أخلاق الواجب)

لقد كان كانط في مقدمة القائلين بوجهة النظر المثالية، فأراد أن يحرر السلوك الأخلاقي من قيود الميول والأهواء، ولهذا استبعد اللذة والمنفعة والسعادة غاية قصوى لأفعال الإنسان الإرادية، إذ جعل الباعث يقوم في الإرادة نفسها، وبذلك ارتدت عنده الأخلاقية إلى مبدأ الواجب.

إن محافظة الإنسان على حياته واجب، والإحسان واجب، وتأمين الإنسان لسعادته الذاتية واجب غير مباشر، ومحبة الجار ولو كان عدوًا واجب. وهكذا فإن الأفعال الإنسانية لا تكون خيرًا إلا إذا صدرت عن واجب، لا عن ميل مباشر أو رغبة في تحقيق مصلحة شخصية، فإذا أدى الإنسان واجبًا – كإنقاذ غريق – فإنه لكى يصبح تصرفه أخلاقيًا ينبغي أن يكون باعث الواجب من بين عدة بواعث هو الكافي للإقدام على الفعل، ومع إقرار العواطف النبيلة كعامل مساعد لإتيان الأفعال الخيرة، فإن غرسها في النفس يعد واجبًا أيضًا.

وذهب كانط في تعريفه للواجب إلى القول أن:" الواجب الأخلاقي هو إتيان الفعل الذي يقوم به الإنسان دون انتظار نتائجه "، بمعنى ضرورة عدم ربط الفعل بما يترتب عليه من نتائج، نضرب مثالا على ذلك الطبيب الذي يؤدي عمله فهو يقوم به على أكمل وجه دون انتظار ثناء أو شكر من أحد، بل لأن الواجب الأخلاقي يحتم عليه فعل ذلك، ليس هذا وحسب بل وضع كانط عدة قضايا ينبغي أن يسير عليها الإنسان في أخلاقه أهمها لا بد أن يجيء الفعل الأخلاقي الذي يقوم به الإنسان بوازع من احترام الواجب، ليس هذا فقط بل يتحتم أن تأتي نتائجه متطابقة مع الواجب الأخلاقي.

أضف إلى ذلك تفرقة كانط بين القاعدة والمبدأ، فالقاعدة شخصية وهي نقطة انطلاق ينطلق منها كل واحد نحو غايته وهدفه، أما المبدأ فهو عام مطلق ينبغي أن يلتزم به الجميع في أخلاقهم وفي معاملاتهم وهو احترام الواجب الأخلاقي.

ويفرق كانط بين الأوامر والأفعال المشروطة والأوامر والأفعال المطلقة. فالأوامر المشروطة هو ربط الغاية بالوسيلة، من أراد الغاية أراد الوسيلة، إذا ذاكرت نجحت، وهو ما يرفضه كانط ربط الفعل بما يترتب عليه من نتائج. أما الأوامر المطلقة فهي التي لا ترتبط بنتيجة الفعل، بل الإنسان يفعل الفعل من أجل احترام مبدأ الواجب، كأن مثلا نقول كن صادقا، كن شجاعا، كن كريما، كن ودودا، من أجل الواجب الأخلاقي يحتم عليك فعل ذلك لا من أجل غاية أو مأرب، كأن يصادق إنسان إنسانا آخر لا من أجل مصلحة ولا منفعة يجلبها له، وإنما يصادقه من أجل الصداقة ذاتها، من أجل احترام قيم الصداقة والصديق، لا من أجل منفعة .

إذن فلسفة كانط الأخلاقية تقوم على الأوامر المطلقة وليست المشروطة، لكن ما هي القواعد التي وضعها لإقامة مذهبه الأخلاقي؟ تتمثل في ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى(قاعدة التعميم): يعتبر كانط هذه القاعدة، بمثابة القانون الأساسي للأخلاق. ويمكن صياغتها كالتالي: «افعل بحيث يمكن لمسلمة إرادتك أن تصح دائما، وفي الوقت نفسه مبدأ تشريع عام». بعبارة أخرى، ونحن نسلك في الحياة، لن يكون فعلنا فعلا أخلاقيا إلا إذا كانت له صبغة القانون العام. أي إن ما يمسني يجب أن يمس الآخرين. بعبارة أخرى، علي الحرص كي لا أجعل من نفسي استثناء في التشريع، وأن أقحم نفسي ضمن القانون المشرع. وهنا بالضبط صلاحية العقل وقدرته على توحيد المعيار نحو الفضيلة والخير.

القاعدة الثانية(قاعدة الغائية): يصوغ كانط هذه القاعدة على شاكلة أمر أخلاقي، وذلك كالتالي: «افعل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك، بوصفها، دائما وفي الوقت نفسه، غاية في ذاتها، ولا تعاملها أبدا كما لو كانت مجرد وسيلة». بعبارة أخرى، إذا كان المرء يريد أن يصدر عنه فعل أخلاقي حقيقي، فهو مطالب بأن يعامل ذاته وذات الآخرين كغاية لا كوسيلة. فإذا كانت الأشياء تكمن قيمتها في نفعيتها واستخدامها لأغراض ومصالح معينة، بالإضافة إلى أنها تقيّم بسعر، ومن ثم قابليتها للبيع والشراء، فإن الإنسان ليس بالشيء. فهو لا يمكن استغلاله لمصالح

خاصة، لأن الإنسانية تجثم في جوفه. وهو كائن لديه الكرامة والعزة والحرمة، وهي أمور تجعله لا يقبل ولا يرضى لنفسه الاستخدام والاستغلال. فلا أحد يريد، أن يساق مثلا، إلى سوق الرق ليباع ويحدد له ثمن. فهناك صرخة في الباطن تمنعنا من ذلك. إن هذه القاعدة الغائية منسجمة مع قاعدة التعميم الأولى. فإذا كان من غير الممكن وضع الكذب ضمن قانون عام، ومن ثم بطلانه أخلاقيا، فإنه بالمثل، باطل، لأنه يجعل من الإنسان وسيلة لا كغاية.

القاعدة الثالثة(قاعدة الحرية): يمكن صياغة هذا القانون على الشكل التالي: «افعل بحيث تكون أنت مشرع نفسك». فإذا كانت القاعدة الأولى تضمن العمل وفق قانون عام، والقاعدة الثانية تجعل الإنسان غاية في ذاته، فإن المرء إذا اكتفى بالخضوع للقانون من دون أن يكون هو واضعه، فسيكون مجرد أداة وليس غاية في ذاته. وما دام أن العقل هو من يضع القانون، فإن الأمر ذاتي، مما سيجعل المرء يطيع نفسه. وطاعة الذات قمة الحرية. فعندما تضع القانون بنفسك، فإنك تكون أمام إكراه حر تتحمل فيه المسؤولية كاملة. وتخرج بذلك من القصور، وتربح كرامتك وعزتك، بعدم السماح للغير بأن يقودك لأنك سيد نفسك. إذن حين أؤدي واجبي، لا أخضع في رأي كانط لقوة خارجية أيا كان سلطانها. وإنما أفعل الفعل بما يتفق مع قانون وضعته لنفسي بنفسي.

خامسا: المذهب الاجتماعي (أخلاق الضمير الجمعي)

لم يقبل أوجست كونت مذهب المنفعة أو مذهب الواجب، لأن الأول يقر الأثرة وينكر الغيرية الكامنة في طبائع البشر، والثاني يقوم على أسس ميتافيزيقية فيستحيل بحثها بالمنهج العلمي، كما لم يقتنع أيضًا بمذهب العاطفة بالمدرسة الاسكتلندية، وفي نظرته للأخلاق المسيحية أعجبه اتجاهها إلى الحث على الإيثار، والحث على تقديم العون إلى المحتاج والضعيف وتنفيرها من الأثرة التي تعد أم الرذائل، ولكنه في الوقت نفسه أخذ عليها التعثر في مسايرة التقدم العلمي، فانصرف عن اتخاذها أساسًا للأخلاق الجديدة.

وبعد أن استبعد كونت أساليب كل من التفكير الميتافيزيقي واللاهوتي، استبدل بهما مناهج التفكير العلمي أسوة بالعلماء الطبيعيين، فاتجه إلى "وضع قوانين تفسير الظواهر الأخلاقية توطئة للسيطرة عليها والإفادة منها في دنيانا الحاضرة ". والخصائص الرئيسية للأخلاق الوضعية كما نظر إليها كونت تتحدد وفقا لما يلي:

1 ـ أنها تقوم على أساس العلم الوضعي، فهي تقوم على الملاحظة لا على الخيال، وتنظر إلى الإنسان كما هو كائن بالفعل لا كما ينبغي أن يكون.

2 ـ أن الأخلاق نسبية، وتستمد نسبيتها من نسبية المعرفة، وليس لها طابع مطلق كما كان يرى كانط.

3 ـ تتحدد المشكلة الأخلاقية في أن يبذل الإنسان قصارى جهده لكي يغلب غرائز المودة بين الناس على دوافع الأثرة، أي بعبارة أخرى أن تتغلب النزعة الاجتماعية على الشخصية الفردية.
4 ـ وجود الميول "الغيرية" وجودًا فطريًا في النفس البشرية، ويسمي هذه الميول (المودة)، وهو تعبير مستمد من المدرسة الاسكتلندية، يقول كونت: " إذا قررت هذه العواطف الغيرية ظهرت الأخلاق، وإذا انتزعتها اختفت الأخلاق."

أما إميل دوركايم فقد جعل علم الاجتماع محور دراساته، مستهدفًا إقامة الاجتماع علمًا واقعيًا مستقلًا، فالظاهرة الاجتماعية تؤثر في الفرد وتوجه سلوكه على غير إرادة منه، بل لا يمكنه مقاومة تأثيرها، وهي تخضع لقوانين علمية كالظواهر الطبيعية، وتنشأ بنشأة المجتمع، لأنها من صنع العقل الجمعي ولها صفة الإلزام، كما أنها تفرض نفسها على الأفراد.

وفي إقامة دوركايم للمذهب الأخلاقي، جعل القيم الأخلاقية ومثلها العليا كالظواهر الاجتماعية، فهي وليدة المجتمع الناشئة عن اجتماع الناس بعضهم ببعض، ودور علم الأخلاق هو دراستها كما هي بالفعل مرتبطة بالزمان والمكان.

وإذا ما اصطدمت الواجبات الاجتماعية بعواطف الفرد، فإنه كثيرًا ما يتغاضى عن مشاعره الخاصة ويخضع للمثل الاجتماعية العليا، أما إذا تمرد على قيم المجتمع فإنه يتعرض للسخط والعقوبة، وللعقوبة مظهران: إحداهما مادية هي القوانين الوضعية، والثانية أدبية تتمثل في سلطة الرأي العام، وبهذا المعنى ذهب دوركايم إلى أن الضمير يعكس بيئة الجماعة وتلتقى فيه تعاليمها.

سادسا: المذهب العاطفي (أخلاق العاطفة)

شهد عصر التنوير في بريطانيا ظهور اتجاهين فلسفيين قويين متعاكسين، الأول جمع بين الفلسفة واللاهوت (العلوم الدينية) بنبرة توافقية إصلاحية، والثاني كان يميل إلى الشك والإلحاد ومعارضة السلطة الدينية. وكان دافيد هيوم من بين فلاسفة الاتجاه الثاني.

وعارض هيوم الفلاسفة الذين رأوا في التصميم والتنظيم المعقّد في الكون دليلاً على وجود الخالق، فهو لا يؤمن إلا بالأدلة المثبتة عن طريق التجربة والملاحظة، معتبراً أن هذا النظام الموجود في الكون قد يكون نتيجة التبديل الذي يحدث صدفة للجسيمات الواقعة في نظام ذاتي الاستدامة، دائم أو مؤقت، وبالتالي يكون له مظهر التصميم.

تأثرت فلسفة هيوم الأخلاقية كثيراً بموقفه بأفكاره الإلحادية وموقفه من الدين والمعجزات، معتبراً أن مصدر المعرفة الأخلاقية هو العواطف والانفعالات، ليضع نفسه في مواجهة معظم الفلاسفة الأخلاقيين، القدامى والمحدثين، الذين تحدّثوا عن مكافحة العاطفة، ويحثون البشر على تنظيم أفعالهم بالعقل، ورأى بعضهم أن المعرفة الأخلاقية مصدرها العقل، ومنهم من أرجعها إلى الوحي الإلهي، ومنهم من أرجعها إلى الضمير.

أما هيوم فقد أصرّ على أن العقل وحده لا يمكن أن يكون دافعاً لأي عمل من أعمال الإرادة، وأنه وحده لا يمكنه أبداً معارضة العاطفة في اتجاه الإرادة. وهو يعتبر العواطف والمشاعر انطباعات وليست أفكاراً، وهي على نوعين: مشاعر مباشرة، كالرغبة، والنفور، والأمل، والخوف، والحزن، والفرح، وتنشأ فوراً من الخير أو الشر، من الألم أو اللذة، ومشاعر غير مباشرة كالكبرياء والتواضع والحب والكراهية، وهي لا تؤدي مباشرة إلى الفعل.

ويرى هيوم أن السلوك الإنساني مرتبط بالطبيعة الإنسانية، والتي تعد انفعالية في الأساس، ولا يحتل فيها العقل إلا دوراً ضعيفاً، فهو يذهب إلى أن كل سلوك إنساني هو صادر عن الانفعالات، وأن الإنسان لا يقوم بسلوكه اليومي بناء على قواعد العقل، بل على طبيعته الانفعالية المتقلبة، التي تجعل الإنسان يتغير في لحظات من النقيض إلى النقيض.

ومثلما أنكر هيوم أن يكون للعقل دور في السلوك الإنساني، فهو أيضاً ينكر دوره في مجال الأخلاق. ويثبت ذلك عن طريق توضيح أن ما يجعلنا نصدر أحكاماً أخلاقية حول ما إذا كان فعل ما فضيلة أو رذيلة، صحيحا أو خطأ، يستحق الثناء والمديح أو اللوم والذم، ولا يعتمد على فكرة مجردة أو قيمة عقلية نتوصل إليها باستدلال أو برهان، بل يعتمد على ما لدينا من رغبات وانفعالات وأهواء.

ويعتقد هيوم أن الفضيلة والرذيلة ليستا إلا وجهة نظر إنسانية بحتة صادرة عن الطبيعة البشرية وليس لهما وجود موضوعي في العالم، ذلك لأنهما مؤسسان على فكرتي الخير والشر، والخير والشر عنده مجرد انطباع انفعالي. الفضيلة أو الرذيلة، أو الخير أو الشر، هذه الأشياء ليست قيماً مطلقة وليس لها وجود واقعي مستقل عن انفعالات البشر، لكن يستخدمها الناس باعتبارها مبادئ أخلاقية بالنظر إلى ما يعود عليهم من نفع أو ضرر. وليست الفضيلة واحدة أو ثابتة، بل هي نسبية، لأن الفعل الفاضل في ظروف معينة يمكن أن ينقلب إلى رذيلة في ظروف أخرى، والحال كذلك مع الرذيلة التي يمكن أن تتحول إلى فضيلة في ظروف مختلفة.

سابعا: مذهب القوة (أخلاق إرادة القوة)

من المباحث الفلسفية ذات الطابع الجدلي التي ثارت حولها نقاشات كثيرة ومازالت إلى يومنا هذا، هي قضية الأخلاق و أصلها وفصلها، ومن بين أكبر الأساطين الذين خاضوا في هذا الجدل وكانت لهم نظريات قوية وذات تأثير واسع وانتشار كبير، هما الفيلسوفان كارل ماركس مؤسس المادية التاريخية وفريدريك نيتشه فيلسوف القوة، وكلاهما عاشا في القرن التاسع عشر، وكلاهما كانا من رواد الفلسفة الألمانية الحديثة، ويشكلان حركة متنافرة، فالاتجاه الذي يسير فيه كارل ماركس هو عكس الاتجاه الذي يسير فيه فريدريك نيتشه.

ماركس يقول بأن الأخلاق هي صناعة الأقوياء والمترفين لاستعباد الضعفاء و المعدومين، وكانت هذه هي نظرية الفيلسوف كارل ماركس ممثل المدرسة الماركسية، فهذه المدرسة ترى أن القيم الأخلاقية من إنتاج الأقوياء اقتصاديا في المجتمع. ودائما ما كانوا هم من يصنع الأخلاق التي بها يضمنون بقاء ونماء مصالحهم المادية، فالقيم الأخلاقية انعكاس لعلاقات الإنتاج والطبقة المسيطرة اقتصاديا هي الطبقة المسيطرة أخلاقيا، في كل العصور والمجتمعات، سوءا كان ذلك في النظام الإقطاعي أو الرأسمالي أو الاشتراكي، فالقيم الأخلاقية مصدرها الطبقة المالكة لقوى الإنتاج.

ويذهب نيتشه إلى أن أخلاق الرحمة والإحسان والصبر هي حيلة ابتكرها الضعفاء لكي يضحكوا بها على الأقوياء، ولكي يأخذوا منهم مكاسب ومنافع، كانت هذه هي نظرية الفيلسوف نتيشه، حيث يرى أن الأخلاق هي من صنع الفقراء و من لا قوة لهم، فهم عندما يفقدون كل وسائل الصراع و المقاومة، يلجؤون إلى حيلة الأخلاق لكي يحصلوا بها على المنافع من الأقوياء، وبناء على هذا قسم الأخلاق إلى قسمين هما أخلاق السادة وأخلاق العبيد.

أما أخلاق العبيد هي الرحمة والتضحية والعطف، وهذه هي أخلاق الرعاع والغالبية العاجزة، التي لا تتميز فيها الروح الفردية، وهي مليئة بخداع النفس، فالزهد والتقشف والرحمة والشفقة –مثلا– هي أنانية مستترة فنحن نشفق على الغير لخوفنا من أن يصيبنا ما أصابهم، ونزور المريض لنراه في ضعفه ونتشفى منه، وحتى عطف وإيثار الأم لأبنائها يراه نيتشه أنانية، وأنه يعود في النهاية إلى حب الأم لنفسها.

أما أخلاق السادة هي أخلاق الأقوياء، و تعني الرجولة والشجاعة والإقدام والجرأة وإرادة القوة والاستقلال والاعتماد على النفس، ومواجهة الألم والمخاطر، فبهذا يصبح الإنسان قوي، وهذا ما تريده الحياة.

ويرى نيتشه بأن التاريخ هو تعاقب بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد، وأنه كلما سيطرت وسادت أخلاق السادة وشريعتهم، تكتلت الأكثرية من أصحاب أخلاق العبيد وانتصرت عليهم، بسبب كثرتها العددية، و بحجة محاربة الشر، فكل ما يصدر عن أخلاق الساده يسميه العبيد شر.